

هذا تشخيص رائع ، وقد ذهب أبو تمام يعمم هذا التشخيص في جميع صورته وأفكاره ، ولم يقف به عند هذا الجانب من شعر الطبيعة ، بل نشره في جميع جوانب شعره .

ولعل التبريزي كان أكثر دقة من الأمدى حين قال إن أبا تمام له مذهب خاص في الاستعارة ، وما دامت المسألة مسألة مذهب فقد كان يحسن بالأمدى وأمثاله من النقاد المحافظين أن يخضعوا لهذا المذهب الجديد ، وأن يعرفوا أن هذا نوع آخر في الاستعارة ليس هو الاستعارة المألوفة ؛ ومن الممكن أن يأتي ناقد ويسميه اسماً جديداً لا يتصل بالاستعارة ، وهم أنفسهم قد سموه الاستعارة المكنية على نحو ما نعرف في كتب البلاغة العربية ، ولكنهم عادوا فاحتكموا إلى التشبيه في بيان هذه الاستعارة ، وبذلك لم ينفع الاسم المقترح وعاد الخلط والإبهام .

ويجدر بنا أن نفصل هذا النوع من التصوير عن الاستعارة على نحو ما فعل أصحاب البلاغة من الغربيين ، إذا سموه باسم « التشخيص » ، وفصلوه عن المجاز ، وكان أرسطو يطلق عليه اسم « قوة وضع الأشياء تحت العين » ، إذن كنا لا نقع في عيب أبي تمام ولومه على أساس تصور القدماء ونقادهم لهذا الجانب من التصوير^(٨٧) والحق أن الأمدى لم يكن موفقاً هو وأضرابه من النقاد المحافظين حين وضعوا للتشخيص قاعدة وأخذوا يناقشون أبا تمام على أساسها ، على أن هناك جانباً في تصوير أبي تمام خلطوا بينه وبين التشخيص ، ونقصد جانب « الإغراب في التصوير » ، إذ كان يغرب أحياناً فيأتي بصورة غير مألوفة على نحو قوله في بعض ممدوحيه :

كَأَنِّي يَوْمَ جَرَدْتُ الرَّجَاءَ لَهُ غَضْبًا أَخَذْتُ بِهِ سَيْفًا عَلَى الزَّمَنِ

فقد كان الأمدى يستقبح منه أن جعل الزمان كأنه صب عليه ماء ؛ وهي ليست صورة قبيحة ، هي غريبة ولكن غرابتها لا تنفي تعبيرها عن فكرته وما احتوته من جمال . ومن ذلك قوله :

حَتَّى إِذَا اسْوَدَّ الزَّمَانُ تَوَضَّحُوا فِيهِ فُغُورٌ وَهُوَ فِيهِمْ أَبْلَقُ

(٨٧) انظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢٣٦ .